# الإشاريَّاتُ الشخصِيَّةُ في «مَجْمَع البيانِ في تفسيرِ القُرآنِ»

م.د. أَحمد صبر كعيّد | كليَّة الإمام الكاظم (ع) للعلوم الإسلاميّة الجامعة
ahmedsabor@alkadhum - col.edu.iq

**المُلَخَّص:**

يسعى البحثُ إلى عقد مقاربة تداوليَّة للإشاريَّات الشخصيّة في: «مجمع البيان في تفسير القرآن» وهو من أشـــهر المدوّنات في مجاله، وسيعرض البحث أيضاً إلى الاســـتراتيجيَّات والآليَّات التي وظّفها الطبرسيُّ للكشف عن مرجعيات الإشاريَّات الشخصيَّة في القرآن الكريم. وتجدر الإشارة إلى أنَّ مباحث المُبهمات تشغلُ مساحةً رحبةً في التفاسير، وعلى وجه الخصوص مرجعيَّة الضمير، التي تشكّل محطَّة بحثٍ شاغلة لأذهان المفسرين جميعاً، حتى عُدَّت المعرفة بأحوال الضمير ومرجعيَّاته شرطاً محتّماً على المُفسِّر كما سيأتي. ولم تكن عنايةُ التداوليّين بالضمائر بأقلِّ من عناية المفسرين بها، حيث احتلَّت مباحث العناصر الإشاريَّة – ولا سيَّما الشخصيَّة – حيّزاً واسعاً في الدرس التداوليّ المعاصر.

الكلمات المفتاحيَّة: الإشـــاريَّات الشخصيَّة، الضمير، تفســـير، مجمع البيان، الطبرسيّ.

# Personal Deixis in «Majma' Al - Bayan Fi Tafsir Al-Quran»

Dr. Ahmed Sabr kaied/ Imam Al-Kadhum College ahmedsabor@alkadhum-col.edu.iq

**Abstract:**

**The research aims to adopt a pragmatics approach to Personal Deixis in «Majma' Al-Bayan Fi Tafsir Al-Quran,» one of the most famous blogs in its field. The research will also present the strategies and mechanisms employed by Al-Tabarsi to uncover the references of Personal Deixis in the Quran. It is worth mentioning that discussions of ambiguities occupy a wide space in Tafsirs, particularly the reference of pronouns, which constitutes an important research topic for all exegetes. As will be discussed, even the knowledge of the conditions of the pronoun and its references is considered an essential requirement for the exegete. The pragmatists' interest in pronouns was not less than the interest of the interpreters in them, as the topics of the indicative elements, especially Personal Deixis, have taken a prominent place in contemporary pragmatics lesson.**

**Keywords: Personal Deixis, Deixis, Tafsir, Majma' Al-Bayan, Al-Tabarsi.**

## المُقدّمةُ:

لا يســاورني الشــكُّ في أنَّ إضمار مرجعية بعض الكلمات –أحياناً – في السياق اللّفظي القرآني لا يعدُّ قصوراً فيه، بل هي إحدى الاستراتيجيات السائدة في القرآن الكريم، وفائدتها ربط القرآن – بوصفه نصّاً ملفوظاً – بمرجعيات وأحداث واقعيَّة،

ليكون النصُّ القرآنيُّ شاهداً حيّاً شاخصاً أمام المتلقين، يشاهدون مصاديقه في حياتهم اليوميَّة ويلمسون آثاره في شتّى شؤونهم، فضلاً عن ذلك فإنَّ القرآن الكريم بوصفه نصّاً إبداعياً رفيعاً لا يناسبه أن يتقيَّد بالمعاني الحرفيَّة لكلماته، بحيث تحيل ألفاظه إلى معانيه مباشرة، إذ سيفقد حينها قيمته الإبداعية والجماليَّة؛ لأنَّ النفس لا تستلذُّ بالمعاني التي يتم تحصيلها بسهولة، بل يجد المتلقي متعةً حين يُعمِلُ فكرَه في استنباط لطائف المقاصد الكامنة في ثنايا الكلام، ومن هنا تبارى أربابُ البلاغة والبيان، والمفسرون، والنحويّون، واللّغوين في سبيل الكشف عن لطائف تلك المعاني القرآنية المكنونة، ومن أبرز أولئك المتنافسين هو الشيخ أمين الإسلام الطبرسيّ الذي وقف إزاء تلك العناصر الإشاريَّة طويلاً ووظَّف شتَّى معارفه وعلومه لتعيين مرجعيَّاتها في تفسيرهِ الفذّ (مجمع البيان في تفسير القرآن)، وهذا ما دفعني لانتقاء هذا التفسير مدوَّنةً لهذا البحث، الذي يقوم على دراسة آراء الطبرسيّ في تحديد مرجعيات تلك العناصر في ضوء مباحث تداوليات الدرجة الأولى (الإشاريَّات)، وهي في مجمع البيان غزيرة جداً، فلا يسعها بحثٌ كهذا، فكان لابُدَّ من الاكتفاء ببعضها؛ فقصرتُ البحثَ على الإشاريَّات الشخصيَّة فقط، أملاً منّي في أن أتناول الأُخرى (الزمانيَّة والمكانيَّة) في بحوث قادمة إنْ شاء الله تعالى.

## التعريف بمُدوَّنَة البحث ومُؤلِّفها:

مُؤلِّف تفسير (مجمع البيان في تفسير القرآن) هو الشيخ أمين الإسلام أبو عليّ الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسيّ المشهديّ، المولود سنة (470هـ) والمتوفى سنة (548هـ)، وهو مفسّرٌ فقيهٌ مُحدّثٌ، روى عن الشيخ أبي علي بن الشيخ الطوسيّ، وعبد الجبّار بن عليّ المقري الرازيّ، ومن أبرز تلامذته: ولده رضيّ الدين صاحب كتاب (مكارم الأخلاق)، وابن شهر آشوب، والقطب الراونديّ، وشاذان بن

جبريل القميّ، وغيرهم الكثير. وألَّف الطبرسيّ الكثير من المصنفات، منها: الآداب الدينيـــة للخزانة المعينية، وإعلام الورى بأعلام الهدى، وكتاب الكاف الشـــاف من كتاب الكشّـــاف، وتفسير جامع الجوامع، وغيرها الكثير (الأصبهاني، 1390، ينظر: 5/ 357 – 359).

والإجمـــاعُ مُنعقدٌ على أنَّ أهمَّ تصنيف خلَّفهُ الطبرسيُّ واقترن باســـمه هو (مجمع البيان في تفســـير القرآن)، الذي يقع في عشرة مجلدات، ويُعدُّ من بين أشهر التفاسير وأهمها، وإليه يلجأ الدارسون على اختلاف مذاهبهم وتوجهاتهم، يقول الشيخ عبد المجيد ســـليم شـــيخ الجامع الأزهر: «إنَّ كتاب مجمع البيان لعلوم القرآن[1]، الذي ألَّفه الشـــيخ العلامة ثقة الإسلام أبو علي الفضل بن الحســـن ابن الفضل الطبرسيّ من علماء القرن السادس الهجريّ، هو كتاب جليل الشأن، غزير العلم، كثير الفوائد حســـن الترتيب، لا أحســـبني مبالغاً إذا قلت: أنَّه في مقدمة كتب التفسير التي تعدُّ مراجـــع لعلومه وبحوثه، ولقد قرأت في هذا الكتاب كثيراً، ورجعت إليه في مواطن عدَّة، فوجدته حلال معضلات، كشَّـــاف مبهمات، ووجدت صاحبه عميق التفكر، عظيـــم التدبر، متمكنا من علمه، قويّاً في أُســـلوبه وتعبيره، شـــديد الحرص على أن يجلي للناس كثيراً من المســـائل التي يفيدهم علمها» (نســـب، 294 – 295)، فقد تميّز تفسير مجمع البيان بدقّة الترتيب والتنظيم والتبويب، ولعلَّ هذه المنهجيّة الدقيقة هي من أبرز عوامل شهرته وانتشـــاره. ومنهجه قائمٌ في الغالب على ذكر «اسم السورة، ومكان نزولهـــا، وعدد آيها في العنوان، وبعد ذلك حين الشروع ينقل الآراء المختلفة في مكان نزولها وعدد آياتها، وإذا كان هناك اســـماء أُخر للســـورة، يذكرها ويوضح تناسبها، فيأتي بروايات في فضل السورة لتلاوتها وخواصها، وبعد هذه الأمور التي

(1) هذه تسميةٌ أُخرى للتفسير.

تعد مقدمة لتفسير السـورة، يذكر آية أو مجموعة من الآيات المناسبة لها، وعادة يأتي بسـبعة عناوين: القراءة، حجة القراءات المختلفة، اللُّغة، الإعراب، النزول، النظم وارتباطها بالآيات الأخرى، معنى الآيات وتفسيرها» (نسب، 2010: 304).

## الإشاريَّات: مفهومها وآفاقها:

ترجع أُصول النظريَّة الإشـاريَّة في البحث اللسـانيّ الغربيّ إلى جذور فلسفيّة، وتعتمدُ عليها في كثيرٍ من مصطلحاتها ومفاهيمها، وقد واجهت النظريَّة الإشـاريَّة رفضاً شديداً من لدن أصحاب المدرسة السلوكيَّة، الذين سعوا إلى إخضاع اللُّغة إلى الملاحظة المباشرة، وأبعدوا عن الدراسـات اللسانيّة كلَّ ما هو خاضع للتجربة، مما أدى إلى التقليل من قيمة البحث في الإشاريَّات حقبة طويلة من الزمن؛ لكنَّها عادت وفرضت نفسـها من جديد بعد إخفاق السـلوكيين في معالجة الكثير من المشـاكل المتعلقة بالمعنى (علي، 2007، ينظر: 90).

والإشاريَّاتُ مفهومٌ لسانيٌّ تداوليٌّ يشـمل العناصر اللغويَّة التي تحيل على المقام بصورة مباشرة، من حيث وجود الذات المتكلمة أو الزمان أو المكان الذي تنجز فيه الملفوظات، فالعناصر الإشاريَّة كأسماء الإشـارة والضمائر وأظرف الزمان والمكان وغيرها، تعـدُّ من العلامات اللغوية التي لا يتحدد مرجعها إلا في سـياق الخطاب التـداوليّ؛ لأنَّها خالية من أي معنى في ذاتها (الزناد، ينظر: 80)، (الشـهري، 2004، ينظر: 80)، (دايك، 2001، ينظر: 136)؛ ولذا يطلق عليها بعضهم تسمية المُبهمات في مباحث الدرس التداوليّ (مانغونو، 2008، ينظر: 123)، (باديس، 2009، ينظر: 83)، (عمران، 2012، ينظر: 22 – 23).

ويقرر لفنسـون أنَّ من فوائد الإشاريَّات أنَّها: «تذكيرٌ دائم للباحثين النظريين في علـم اللغة بأنَّ اللغات الطبيعية وُضعت أساسـاً للتواصل المباشر بين الناس وجهاً

لوجه، وتظهر أهميتها البالغة حين يغيب عنا ما تشير إليه؛ فيسود الغموض ويستغلق الفهم» (نحلة، 2002: 16 – 17).

ويرى جاكبسون أنَّ الإشاريات تتميز بأنَّها ذات طابع كونيّ، فهي حاضرة في جميع لغـات العالم، وهي في الوقت ذاته تحتل مكانـة متميزة بين العناصر المؤثرة في تحقيق فاعليـة التواصل، وهي فاعلية مرتبطة في الإحالـة الى موضوعات ذات مرجعيَّات معلومة بالنسـبة لأطراف التواصل، والمرجعيّة كما هو معلوم تمثّل عصب الخطاب والضامن لحسن تبليغه (ختَّام، 2016، ينظر: 77 – 78).

لأجـل كلِّ هذا فقد «تضافرت الجهود اللسـانية الرامية لتعميق الفهم بالقضايا التداولية التي يثيرها مبحث الإشـاريات، علماً أنَّ البداية الأولى للتداوليّة اللسانية ارتبطت بهذا المبحث، فقد أشـار شـارل مـورس إلى أن البُعد الثالث في دراسـة السـيموزيس يبحث العلاقة بين العلامات ومؤوليها، وقد اتضح له في تلك الأثناء أن مجال التداولية لا يعدو العناية بضمائر الكلام، وظروف الزمان والمكان، ومختلف التعابير التي تسـتقي مرجعيتها من مقامات التواصل، وإذا كانت دراسـة مورس لم تتوسـع في تحليل هذه المباحث، إلا أنّها حازت قصب السـبق من جهة، ومهدت الطريق للدراسـات اللسـانية اللاحقة التي اهتمت بقضايا التلفـظ والملفوظ من جهة أُخرى» (ختَّام، 2016: 76). والإشـاريّات عند أغلـب الباحثين ثلاثة أنواع، هي: الإشاريّات الشـخصيّة، والإشاريّات الزمانيّة والإشـاريّات المكانيّة، ومنهم من أضاف الإشـاريّات الاجتماعيّة والخطابيَّة (هوانغ، 2020، ينظر: 217 – 218)، (سيرفوني، 1998، ينظر: 27)، (شارودو، ومنغنو، 2008، ينظر: 156).

## الإشاريّات الشخصيَّة:

وتتمثـل بالعناصر الدالة على المتكلم أو المخاطـب أو الغائب، وهي مرجعيات

تقع داخل الملفوظ وتحيل إلى السـياق الخارجيّ، فلفظ (أنا) لا يسعه إلا التدليل على الشخص الذي تلفظ به، ولفظ (أنت) لا يشير إلا إلى الشخص الذي خاطبه المتكلّم (سـيرفوني، 1998، ينظر: 27)، ونحو ذلك، و«ممارسـة التلفـظ هي التي تدلُّ على المرسـل في بِنية الخطاب العميقة، مما يجعل حضور (الأنا) يرد في كلِّ خطاب؛ ولهذا فالمرسـل لا يضمّنها خطابه شـكلاً في كلِّ لحظة، لأنَّه يعول على وجودها، بالقوة، في كفاءة المرسـل إليه، وهذا ما يسـاعده على اسـتحضارها لتأويل الخطاب تأويلاً مناسباً... فلو تلفظ المرسل بالخطاب التالي مُخبراً: (نزل المطر) فإنَّ قوله يتضمن بُعداً إشـاريَّاً هو: (أنا أقول: نزل المطر)، وما يدلُّ على حضور الأداة الإشـاريَّة (أنا) في ذهن المرسـل إليه هو إحالته، لفظاً، على المرسل، عندما ينقل هذا الخبر إلى غيره من الناس، وشكَّ أحدٌ في صحته، بقوله: (هو قال: نزل المطر)، أي أنَّه أحال القول على المرسل الأصل باستعماله أداة إشارية تتناسب مع المحال عليه إفراداً وتذكيراً وغيبةً» (الشهري، 2002، 82 – 83). وتوسـعت تصنيفات الإشاريَّات الشخصيَّة وتحديداً فيما يتعلق بالمتكلم والمخاطب، فضمَّت إشاريَّات المكانة الاجتماعيَّة، فقد تستوجب المكانة الاجتماعيَّة العُليا لشخص ما استعمال الضمير بصيغة الجمع، وذلك من باب التبجيل والتعظيم، وتسـمى التعابير التي من هذا النـوع بالمُبجّلات (يول، 2010، 29)، في حين أدرج بعضهم النداء ضمن عناصر الإشـاريَّات الشـخصيَّة (هاونغ، 2020، ينظر: 477، 672)، (باديس، 2009، ينظر: 247 – 272)؛ ففي الغالب لا تتسنى معرفة طرفي الخطاب في النداء إلا بالرجوع إلى السياق الذي حدث فيه الخطاب.

## الإشاريَّات الشخصيَّة في مَجمع البيان في تفسير القرآن:

من المفاهيم الراسـخة أنَّ مُهمَّة المُفسِّر تتمثل في الكشـف عـن مقاصد النصِّ القـرآنيِّ من خلال جملة من الإجراءات المعرفيَّة والعلميَّة؛ ولذا اشـتُرطَ بالمفسِّرِ أن

يتصف بكفاءة فائقة وشـــموليَّة بكلِّ ما يتصل بالنصِّ القرآنيّ من داخله أو خارجه، وأعني بخارج النصِّ أســباب النزول والسياقات الحالية وكلّ ما من شأنه أن يسهم في اجتــلاء المعنى الخفيّ للنصِّ المكتوب. ولا شــكَّ انَّ من أبــرز الأمور التي تمثّل عائقاً في فهم النصِّ بشــكل متكرر هي مســألة تحديد المرجع الذي تحيل إليه بعض الألفاظ الإشــاريّة، ولا سيَّما مسألة عود الضمير إلى مرجع داخل النصِّ أو خارجه؛ ولذا فإنَّ العلماء يرون أنَّ من أهــم القواعد التي ينبغي على المفسِّر اتقانها هي قاعدة مرجع الضمير، ويُذكر في ســياق التأكيد على أهمية تلــك القاعدة: أنَّ ابن الأنباريّ ألَّــف كتاباً في مجلدين عن الضمائر في القرآن الكريم (الزركشي، 2006، ينظر: 933)، (الســيوطي، 2003، ينظر: 399)، ومن هنا نجد أنَّ الطبرسيَّ أولى مســألة العناصر الإشاريَّة عناية كبيرة، وتركز اهتمامه على تفسير كلّ الإلفاظ التي تشير إلى مرجعيات يصعب تحديدها، إذ لا شكَّ في أنَّ عدم تعيّن مرجع أيّ ملفوظ يؤدي إلى عرقلة فهم النصِّ بأكمله.

من ذلك تَعَرُّضه لتشــخيص مرجعيّة الاســم الموصول «الذين» في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُــولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ {المائدة ٥٥}، إذ إنَّ عائدية الاســم الموصول في قوله (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا) لا يمكن تعيينها اعتماداً على الســياق اللفظيّ فحســب، بل العكس فإنَّ القرائــن تُحيلنا مُلزمين إلى خارج النصّ؛ لأنَّ الآية اســتُهلَّت بأداة الحصر (إنَّما) والتي أفادت تخصيص الولاية وحصرها ههنا، وهذا لا ينســجم مع لفظ (الذين) إذا حُمل على دلالته الظاهرة وهي العودُ عــلى الجمع، وقد أدرك الشــيخ أمين الدين الطبرسيّ أنَّ حمــل لفظ (الذين) على دلالته الوضعية ســينتج عنه عجــزٌ في تحديد الوليّ الذي تجــب طاعته بعد الله ورســوله؛ لذلك تدرَّج الطبرسيُّ في حلِّ المســألة بغية الوصــول إلى تحديد مرجعيَّة الاســم الموصول، فانطلقَ أولاً من داخل النصّ، فقال: «تقتضي التخصيص ونفي

الحكم عمَّن عدا المذكور، كما يقولون: إنَّما الفصاحة للجاهليَّة، يعنون نفي الفصاحة عن غيرهـــم، وإذا تقرر هذا لم يجز حمل لفظة «الوليّ» على المـــولاة في الدين والمحبَّة؛ لأنَّهُ لا تخصيص في هذا المعنى لمؤمن دون آخر، والمؤمنون كلّهم مشـــتركون في هذا المعنى، كما قال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ {التوبة:71} وإذا لم يجز حمله على ذلك، لم يبق إلا الوجه الآخر، وهو التحقق بالأمور، وما يقتضي فـــرض الطاعة على الجمهور؛ لأنَّه لا محتمل للفظـــة إلا الوجهان، فإذا بطل أحدهما ثبت الآخر» (الطبرسي، 2005: 3/ 298)، فهو هنا كشفَ أنَّ حمل الكلام على الظاهر سيسفر عنه تعارض في الدلالات كما أشرنا قبل قليل، وهو بذلك يرفض الآراء التي تحمل لفظة (الذين) على الجمع؛ لأنَّها تتعارض مع إفادة (إنَّما) لمعنى الحصر، ويرفض أيضاً تعيين دلالة «الوليّ» بأنّها المولاة بالديـــن والمحبَّة، حتى وإنْ كانت هذه إحدى دلالاتها فهي من المشـــترك اللفظي كما هو معلوم، أي أنّهـــا معجميَّاً تحمل دلالات متعددة والسياق هو الذي يرشّح دلالةً دون سواها، والسياق ههنا يفرض حملها على معنى (الوليّ بالأمر) الـــذي تجب طاعته، ويكرر الطبرسيُّ رفضه حمل كلمة (الذين) على الدلالة الجمعيَّة مرةً أخرى فيقولُ: «وليس لأحد أنْ يقول إن لفظ (الذين آمنوا) لفظ جمع، فلا يجوز أن يتوجه إليه على الانفراد، وذلك أنَّ أهل اللغة قد يعبرون بلفظ الجمع عن الواحد على ســـبيل التفخيم والتعظيم، وذلك أشـــهر في كلامهم من أن يحتاج إلى الاســـتدلال عليه»(الطبرسي، 2005: 3/ 298)، وبذلك يحكم الشيخ أمين الإسلام الطبرسيّ أنَّ إشاريَّة الاسم الموصول «الذين» لا تحيل إلى الجمع؛ لذا وجب البحث عن مرجعيتها الإشـــاريَّة خارج النصّ، ومن الثابت أنَّ أسباب النزول هي الكاشف الأبرز عن الســـياقات الحالية للنص القرآني؛ ولذلك توافقت كتب علوم القرآن على أنَّ من أهم صفات المُفسِّر أن يكون عارفاً بأسباب النزول مُحيطاً بها، وقد أورد الطبرسيُّ طُرقاً شـــتَّى للرواية التي نصَّت على أنَّ المقصود بـ(الذين) هو الإمام

عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، ثمّ قال بعد ذلك: «والذي يدلُّ على أنَّ المعني بـ (الذين آمنوا) هو علي: الرواية الواردة من طريق العامة والخاصة بنزول الآية فيه، لَمَّا تصدق بخاتمه في حال الركوع، وقد تقدم ذكرها، وأيضاً فإنَّ كلَّ من قال إنَّ المُراد بلفظة (وليّ) ما يرجع إلى فرض الطاعة والإمامة، ذهب إلى أنَّه هو المقصود بالآية، والمتفرّد بمعناها»(الطبرسي، 2005: 3/ 298). تبين لنا مما سبق أنَّ لفظة (الذين) في هذه الآية مثَّلت عنصراً إشاريَّاً مُبهماً لم يتحدد معناه داخل النص الملفوظ، ولتعيين مرجعيته الإشاريَّة لجأ المُفسِّر إلى سلسلة من الاستدلالات للكشف عن المُشار إليه في هذا الملفوظ المبهم بذاته، فانطلق من داخل الخطاب ليتفحَّص كلَّ الدلالات المُحتملة لمرجعيَّة هذه اللفظة، ولمّا تبين له أنَّ السياقَ اللفظيَّ لا يسعفه في الكشف عن مرجعيتها لجأ إلى السياقات الحاليَّة المتمثلة بأسباب النزول، ليطمئن إلى رواية متواترة عيَّنت المرجع الذي يحيل إليه العنصر الإشاريّ (الذين)، وهو الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام).

ومن الضمائر التي تحيل إلى مرجع خارج السياق اللفظيّ الضمير (هي) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلاً فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ {يس:8}، ذهب جمعٌ من المفسرين إلى أنَّ الضمير (هي) يعود على الأغلال، ومنهم الزمخشريّ حين قال: «فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾؟ قلتُ معناه: فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها وذلك أنَّ طوق الغُلِّ الذي في عنق المغلول يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادراً من الحلقة إلى الذقن» (الكشَّاف، 2009: 890)، وقال أبو حيّان: «والظّاهِرُ عَوْدُ الضَّمِيرِ في فَهي إلى الأغْلالِ؛ لِأنَّها هي المَذْكُورَةُ والمُحَدَّثُ عَنْها» (أبو حيّان،1993: 7/ 311)، (الحلبي، ينظر: 9/ 247)، لكنَّ الشيخ أمين الدين الطبرسيّ يرى أنَّ مرجع الضمير لم يُذكر في الآية، والضمير يحيل إلى مرجع خارج النصّ، فيقول في معنى (فهي إلى الأذقان): «يعني أيديهم،

كنّى[1] عنها، وإنْ لم يذكرها، لأنَّ الأعناق والأغــلال تدلان عليها، وذلك أنَّ الغُلَّ إنَّما يجمع اليدَ إلى الذقنِ والعنقِ، ولا يجمع الغُلُّ العنقَ إلى الذقنِ»(الطبرسي، 2005: 8/ 298)، فهو هنا خالف الرأي المشــهور بين النحويين والمفسرين الذي ينصُّ على أنَّ الضمــير يعود إلى أقــرب مذكور وأنَّه لا يمكــن صرف مرجعيَّة الضمير خارج الســياق اللفظيّ مــا لم توجد قرينة تبيحُ ذلك، وذهب إلى أنَّ الضمير هي يشــير إلى الأيــدي، وليس إلى الأغلال، مرتكِزاً برأيه هذا على ســياق الحال، فالواقع يؤكد أنَّ الأغــلال تجمع اليد إلى العنق، قال ابن منظــور: «والغُلّ: جامِعة توضع في العُنق أَو اليــد، والجمع أَغْلال لا يكسَّر على غير ذلك، ويقــال: في رقبته غُلٌّ من حديد، وقد غُلَّ بالغُلِّ الجامِعة يُغَلّ بها، فهو مَغْلول» (ابن منظور، 1405هـ، (غلل): 11/ 405)، ومــن هنا قرَّرَ الطبرسيُّ أنَّ الضمير يشــير إلى الأيدي وليس الأغلال، فالأغلال إنّما وجدت لتجمع الأيــدي إلى الأعناق أو الأذقان، بل إنَّ الحكــم بعودِ الضمير على الأغلال يخالف العقــل والواقع؛ لأنَّ المعنى – والحالة هذه – ســيدلُّ على أنَّ الغُلَّ يجمــع العنق إلى الذقن وليس الأمر كذلك كما اتضــح. إذن فالضميرُ (هي) في هذه الآية مثّلَ عنصراً إشاريّاً عند الطبرسيّ؛ لأنَّ مرجعيَّته لم تتعين وتتضح داخل النصّ، بل أحالت إلى مرجع خارج السياق اللَّفظيّ.

ومن العناصر الإشــاريَّة المُبهمة التي ناقشــها الطبرسيُّ هــو الضمير (الهاء) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَـة﴾ {البقرة:31} فمرجعيَّة الضمير هنا لا يمكن تعيينها بالركون إلى السياق اللفظيّ فقط، بل يتوجب على المتلقي البحث عن مرجعيَّة ذلك الضمير في الواقع الخارجيّ؛ لذا توسَّــل الطبرسيُّ بالموروثِ الروائيِّ للصحابة والتابعين الكرام، لما تمثلــه آراؤهم من حُجَّة بالغة يلجأ إليهــا العلماء عادةً لتدعيم

(1) كنّى أي: استعمل الضمير، والضمير في اصطلاح الكوفيين يسمى المكنّى والكناية، (ضيف، ينظر: 166).

آرائهم، يقولُ الطبرسيّ: «روي عن ابــن عباس أنَّه قال: عرض الخلق، وعن مجاهد قال: عرض أصحاب الأســماء»(الطبرسي، 2005: 1/ 102). فالضمير عندهما يعود على المســميات دون الأســماء، يقول الطبرسيُّ معلقاً على ذلك: ((وعلى هذا فيكون معناه: ثم عرض المسميات على الملائكة، وفيهم من يعقل، وفيهم من لا يعقل، فقال: عرضهــم غلَّب العقلاء، فأجرى على الجميع كناية من يعقل، كقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ {النور:45} أجرى عليهم كناية من يعقل» (الطبرسي، 2005: 1/ 102)، ولا يكتفي الطبرسيُّ بهذا المذهب، بل يســلك سبيلاً آخر للكشف عن مرجعيّة ثانية لهذا الضمير، فيقول: «وفي قراءة أُبي: (ثُمَّ عرضها) وفي قراءة ابن مسعود: (ثُمَّ عرضهن) وعلى هاتين القراءتين يصلح أن يكون عبارة عن الأسماء دون المسميات» (الطبرسي، 2005: 1/ 102)، فقــد ارتكنَ هنا إلى القراءات القرآنيَّة التي طالما لجأ إليها المفسرون في توجيه مقاصد كثيرٍ من النصــوص القرآنية، وبالاعتماد على القراءتين المذكورتين قرَّرَ الطبرسيُّ أنَّ الضمير لا يشير إلى المسميات بل إلى الأسماء، وهو استنتاج يقع على النقيض من رأي ابن عباس ومجاهد، وأرى أنَّ كلا الرأيين –مع اختلافهما – يتسمان بالصحّة والمقبوليَّة؛ إذ اســتند في كلِّ رأي منهما على مقدمة سليمة أفضت إلى نتيجة صحيحــة يقبلها العقل، ولا يعدُّ ذلك تناقضــاً أو تعارضاً، بل هو من أركان بلاغة الكلام، إذْ تدلُّ الألفاظُ اليسيرة على المعاني الكثيرة.

ومن الآيات التي يتوقف فهما على معرفة مرجع العنصر الإشاريّ هو قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ {الأعراف:13}، فالسياق اللَّفظي لا يُسعفنا في معرفة المرجع الذي يشير إليه الضمير في قوله: (منها) وســيفضي – بالضرورة – إلى الجهل أيضاً بمرجعيَّة الضمــير في قوله: (فيها)، وفي الإجمال ســيكون المتلقي جاهلاً بالمكان الذي طُردَ منه إبليس بقوله تعالى: (أخرج)،

فمن أيّ مكان أو منزلةٍ يخرج؟ وللإجابة عن ذلك يسوقُ الشيخُ الطبرسيُّ طائفة من التأويلات الراجحة فيقول: «قال الله سبحانه لإبليس (فاهبط) أي: انزل وانحدر (منها) أي: من السماء عن الحسن. وقيل: من الجنة. وقيل: معناه انزل عما أنت عليه من الدرجة الرفيعة والمنزلة الشريفة، التي هي درجة متبعي أمر الله سبحانه وحافظي حدوده، إلى الدرجة الدنية التي هي درجة العاصين المضيعين أمر الله فما يكون لك أن تتكبر عن أمر الله (فيها) أي: في الجنة أو في السماء، فإنَّها ليست بموضع المتكبرين وإنّما موضعهم النار كما قال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ {الزمر:60} (فاخرج) من المكان الذي أنت فيه، أو المنزلة التي أنت عليها» (الطبرسي، 2005: 4/ 169). لا يخفى أنَّ الطبرسيَّ كان مدركاً لمواطن الإبهام في الآية المباركة، فتصدى لكشف ذلك الإبهام وبيانه، وتلك هي مهمة المفسّر البارع، فقد أجادَ في إيراد ثلاثة أقوال في تعيين مرجعية الضمير في قوله: (منها)، فهي: إمّا الجنة أو السماء أو المنزلة الرفيعة، وجميعها مُسوَّغَة بلحاظ سياق الحال الذي رسمه القرآن بمجمل آياته، فالنظر إلى القرآن على أنَّه نصٌّ مترابط من أوله إلى آخره يخلقُ سياق حال يلجأ إلى المفسرون في توجيه ما استغلق عليهم فهمه من آيات القرآن الحكيم، وبعد أن حدد الاحتمالات الممكنة في مرجعية العنصر الإشاريّ في قوله: (منها)، أطلق الحكم ذاته على الضمير في قوله: (فيها)، وفي ضوء ذلك كشفَ عن المكان الذي طُردَ منه إبليس والمنزلة التي سيكون عليها بعد ذلك، وما كانت تلك المعاني لِتَنجليَ لو لم تتعين مرجعية العنصر الإشاريّ في قوله: منها.

ومن الضمائر التي لا تُشيرُ إلى أيِّ مرجعٍ في السياق اللفظيّ، هو الضمير (الهاء) في قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ {الحاقة:27}، إذ يرى الطبرسي أنَّ الضمير في هذه الآية لا يعودُ على ملفوظ سابق أو لاحق، ويرى أنَّه يحيلنا إلى خارج النص، فيقول: «والهاء في (ليتها) كناية عن الحال التي هم فيها، وقيل: هي كنايةٌ عن الموتة الأولى،

والقاضية: القاطعة للحياة، أي ليت الموتة الأولى التي متنا لم نحيَ بعدها، عن الفرّاء: يتمنى دوام الموت وأنّه لم يبعث للحساب، وقال قتادة: تمنى يومئذٍ الموت ولم يكن في الدنيا شيء عنده أكره من الموت» (الطبرسي، 2005: 10/ 84)، في كلام الطبرسيّ هذا تتجلى بوضوح القيمة الخطابيَّة للعناصر الإشارية، فهي علامات تحيل من داخل النص إلى مرجعيات في العالم الخارجيّ، فالإشارة كما عرفتها آن ريبول بأنَّها: «فعل الإشارة بواسطة تعبير إحاليٍّ لشيء معين في العالم» (بعزيز، 2015، 125). والضمير في الآية لم يشر إلى ملفوظ داخل النصِّ؛ ولذلك حاول الطبرسيُّ تعيين مرجعيَّته في العالم المشهود، وقدَّر أنّه يشير إلى أحد أمرين: فهو إمَّا إشارة إلى الحال التي هم عليها يوم الحساب، وتلك الحال رسمت صورتها الآيات السابقة وهي حال الندم والأسى التي يعيشها من أوتي كتابه بشماله. وإمَّا يشير إلى الموتة الأولى، فمن أوتي كتابه بشماله يفضل أن يكون في حالة موت دائم على أن يُبعث فيحاسب، والطبرسيُّ على ما يبدو يميل إلى هذا الرأي، حيث عضّده بمذهب الفرّاء وقتادة، فضلاً عن أنَّ هذا الرأي يؤيده ما ورد في الآيتين السابقتين، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ {الحاقة: 25 – 27}، فالذي أوتي كتابه بشماله في حالة تمنٍ متكرر بأنّه: لم يقف في موقف الحساب ولم يؤتَ كتابه، وذلك يقتضي تمني عدم الإحياء للحساب أصلاً.

ومن الآيات التي ناقش فيها الطبرسيُّ مسألة مرجعية الضمير قوله تعالى:﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ {ص: 31 – 32}، إنَّ الاعتماد على السياق اللفظيّ لا يسعفنا في تحديد مرجعيَّة الضمير المستتر في قوله: (توارت)؛ لذلك لجأ الطبرسيُّ إلى سياق الحال للبحث عن مبتغاه في تعيين مرجعية ذلك الضمير فقال: «حتى توارت بالحجاب،

أي: غربت الشمس، عن ابن مسعود، وجماعة من المفسرين. وجاز وإن لم يجر للشمس ذكر... وقيل: الضمير للخيل يعني حتى توارت الخيل بالحجاب، بمعنى أنَّها شغلت فكره إلى تلك الحال، وهي غيبوبتها عن بصره، وذلك بأنَّه أمر بإجراء الخيل، فأجريت حتى غابت عن بصره» (الطبرسي، 2005: 8/ 273)، لتعين مرجعية الضمير في قوله (توارت) يذكر الطبرسيُّ رأيين، الرأي الأول: ينصّ على أنَّ الضمير يشير إلى الشمس، وإن لم تُذكر في السياق اللفظيّ، ولعلّه استند في مذهبه هذا إلى قرينة لفظيّة وردت في الآية السابقة وهي لفظة: (العشيّ) فهي ملازمة لغروب الشمس وتواريها، وإنْ لم يصرِّح الطبرسيُّ بذلك فقد صرح به غيره من المفسرين، ومنهم الزمخشريّ حين قال: «والذي دلَّ على أنَّ الضمير للشمس مرور ذكر العشيّ» (الزمخشري، 2009: 925). والرأي الثاني في عود الضمير في قوله (توارت) يفترضُ أنَّه يشير إلى الخيل، بقرينة ورود وصفها في الآية السابقة: (الصافنات الجياد)، فهي مذكورة في السياق اللفظيّ، وهذا ما سوَّغ إعادة الضمير عليها.

ومن الجدير بالاهتمام التمعّن في عبارة الطبرسيّ السابقة: (وجاز وإن لم يجر للشمس ذكر)، فهذه العبارة تكررت كثيراً في تفسير مجمع البيان، حتى انّه ليصعب حصرها في هذا البحث (الطبرسي، 2005، ينظر: 6/ 316، و8/ 198، و 9/ 258، وغيرها)، وهذا يوضّح مدى اعتقاد الطبرسيّ بأنَّ مرجع الضمير ليس بالضرورة أن يعود على أقرب مذكور، كما توافق النحويون على ذلك، فهو إذ يقف إزاء نصٍّ إبداعيٍّ يحتل مرتبة الإعجاز البيانيّ، لا يمكن أن يتقيّد بالدلالات المباشرة للألفاظ والعبارات، لا سيما مسألة مرجع الضمير، بل لابدَّ من توسيع دائرة التأويلات المحتملة لمرجعيات تلك الإشاريَّات المبهمة في ذاتها، بل المُبهمة – غالباً – حتى بلحاظ سياقها اللفظيّ.

## الخاتمة:

قصدتْ هذهِ الدراســةُ الكشــفَ عن الآليات التي اعتمدها الطبرسيُّ في مَجمَعِهِ لتعيين مرجعيّات العناصر الإشــاريَّة الشخصيّة في القرآن الكريم، وخرجت بطائفة من النتائج، كان أبرزها:

1 – إنَّ النصَّ القرآنيَّ كثيراً ما يُغفلُ مرجعيَّة العنصر الإشاريّ في سياقه اللفظيّ، ليحيلَ المُتلقي إلى سياق الحال؛ مما سيعززُ البُعدَ الواقعيَّ للقرآن الكريم بوصفه نصّاً حيّاً مؤثراً ترتبط مقاصده بحياة الناس بشــكلٍ وثيقٍ، فضلاً عن القيمة البيانيَّة لإخفاء مرجعيَّات العناصر الإشــاريَّة، إذ ســيعمدُ المتلقي – لاسيَّما المفسّر – إلى إعمال ذهنه للوصول إلى تلك المرجعيَّات.

2 – يعتقدُ الطبرسيُّ أن العناصر الإشــاريَّة من الممكن أن تحيلَ مباشرة إلى خارج النصِّ، فلا يُشــترط أن تســتند إلى قرينة لفظيّة تُعين عــلى تحديد مرجعيتها؛ ولذلك شاعَ عنده تفســير الضمير بمرجع خارجيّ، ثمَّ يتبعه بعبارة: (وإنْ لم يجرِ لهُ ذكر).

3 – اعتمدَ الطبرسيُّ على كفاءَته المعرفيّة الواسعة في علوم القرآن والحديث واللغة وغيرهــا، ووظَّفها ببراعةٍ في تعيين مرجعيات العناصر الإشــاريّة، ونتج عن ذلك أنّه في الغالب لا يفسّر العنصر الإشاريَّ بمرجع واحد، بل رأيناه يقترح أكثر من مرجعٍ محتمل له، معتمداً في كلِّ مرّة على دليلٍ مختلفٍ، وذلك بطبيعة الحال من معالم بلاغة القرآن الحكيم، إذ يوردُ المعاني الكثيرة بالألفاظ اليسيرة.

## المصادر والمراجع:


- القرآن الكريم.
- ابــن منظور، العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقيّ المصريّ، لسان العرب، نشر أدب الحوزة، قم، إيران، 1405هـ.
- أبو حيان، الأندلسي. تفســير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسيّ (745هـ)، دراســة وتحقيق: الشــيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض وآخرون، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1993م.
- أرمينكو، فرانسواز. المقاربة التداولية، ترجمة د. سعيد علوش، مركز الانماء القوميّ، الرباط المغرب، 1987م.
- الأصبهانيّ، محمد باقر الموسويّ الخوانساريّ (1895م)، روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات:، المطبعة الحيدريَّة، طهران، ايران، 1390هـ.
- باديس، نرجس. المشيرات المقاميّة في اللغة العربيّة، مركز النشر الجامعي، 2009م.
- بعزيز، سلاف. التأصيل النظري لمصطلح «المرجعيَّة» في التراث العربيّ والدراسات الغربية الحديثة (بحث)،، مجلة علوم اللغة العربيَّة وآدابها، تصدر عن جامعة الشــهيد حمه لخضر الوادي – كليَّة الآداب واللغات، الجزائر، العدد 8، 2015م.
- الحلبــيّ، أحمد بن يوســف المعروف بالســمين (756هـ)، الدر المصــون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.
- ختَّام، جواد. التداولية أصولها واتجاهاتها، ط1، كنوز المعرفة، عمان، 2016م.
- دايك، فان. علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة وتعليق: ســعيد حســن بحيري، ط1، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، مصر، 2001م.
- الزركشيّ، بدر الدين محمد بن عبد الله (794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبي الفضل الدمياطيّ، دار الحديث، القاهرة، 2006م.
- الزمخشري، أبو القاســم جار الله محمود بن عمر الخوارزميّ (538هـ)، تفسير الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،، علَّق عليه خليل مأمون شــيخا، ط3، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2009م.
- الزَّناد، الأزهر. نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصًا، ط1، المركز الثقافيّ العربيّ، بيروت، لبنان، 1993م.

- سـيرفوني، جان. الملفوظيّة، ترجمة الدكتور قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، مكتبة الأسد الوطنيّة، دمشق، 1998م.
- السيوطيّ، جلال الدين (911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط، ط1، مؤسسة الرسالة ناشرون، 2008م.
- شـارودو، ومنغنو، باتريك - دومينيك معجم تحليـل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيريّ وحمّادي صمّود، منشورات دار سيناترا، تونس، 2008م.
- الشـهريّ، عبد الهادي بن ظافر. اسـتراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، 2004م.
- الطبرسي، أمين الإسلام أبو عليّ الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ط1، دار العلوم، بيروت، لبنان، 2005م.
- ضيف، د. شوقي. المدارس النحوية، ط7، دار المعارف، القاهرة.
- علي، محمد محمد يونـس، المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالـة في العربيّة، ط2، دار المدار الإسلاميّ، بيروت، لبنان، 2007م.
- عمران، قدور. البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل: ط1، عالم الكتب الحديث، اربد، الاردن، 2012م.
- مانغونـو، دومنيك. المصطلحـات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمـة: محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2008م.
- نحلة، د. محمود أحمد. آفاق جديدة في البحث اللّغويِّ المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2002.
- نسـب، محمد علي أسدي. المناهج التفسـيريَّة عند الشيعة والسـنة، ط1، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، إيران، طهران، 2010م.
- هوانغ، يان. معجم أكسـفورد للتداوليّة، ترجمة: هشام إبراهيم عبد الله الخليفة، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، 2020م.
- يول، جـورج. التداولية: جورج يـول، تر: د. قصي العتـابيّ، ط1، دار العلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 2010م.